ـ « اي مريض » ، قال غابي ، « انه سليم كثور ، محتال ، وهذا كل ما في الامر » ٠

ـ « لا دم البتة لهؤلاء الاعراب في عروقهم » ، قال أرييه ساهما ، « ما كنت لاتـــرك قرية كهذه بهذا الشكل ! فلو انني كنت في مكانه هنا ـ لكنتم تجدونني في انتظاركم والبندقية في يدي ٠ والا ماذا حسبتم ! أقسم انني كنت سافعل ذلك ! ٠٠٠ قرية كبيرة كهذه ، ولا يوجد فيها حتى ولا ثلاثة اشخاص يكونون ، هكذا ، رجالا ٠ انهم ما ان يروا اليهـــود حتى يتغوطوا في سراويلهم ٠ جيب واحد ـ كم نحن هنا ـ مجرد جيب وبضعة رجـال : نحتل قرية كاملة ٠ انني لا افهمهم ! » ٠

كنا قد ترجلنا في هذه الاثناء ، وفي الوقت الذي كان فيه أرييه لا يزال يعرض آراءه ـ افكاره ، وتقدمنا نتفقد الباحات المقفرة ، ننادي ونعلن عن كل ما يمكن ان يكون « لقطة » ، بينما كانت الارانب والدجاج تفر من امامنا ، نصب القليل بعض الاحيان من المازوت الذي كنا قد جهزناه في الصفائح ، ووضعناه في الجيب سلفا ، ونشعل تبانا او بوابة خشبية او سقف قش منخفض ، ثم ننتظر الى ان نرى كيف انها ستتحول الى نيران تقل وقاحتها مع احتراق المازوت ، نركل شيئا ما هنا واخر هناك ، عل ما هو اثمن مخبأ تحتـــه ، حريصين على ان لا ندخل البيوت خشية البراغيث ، ونجتاز غازين جزءا من حياة لبيوت وباحات ويشر ، سحقتهم لحظة واحدة في اوج جريهم ، ولم تذر منهم سوى ايمـــاءة متحجرة ، ستأخذ منذ الان فصاعدا بالاهتراء والاندثار في غبار الزمن ٠

وفي احدى الباحات في اسفل القرية عثرنا على امرأتين سرعان ما طفقتا تبكيان عند رؤيتنا ، وتعولان بشيء ما وكأنهما تبغيان قول شيء كان لا يمكن فهمه ، لان شـــكوى احداهما كانت تتداخل بشكوى الاخرى ، ولان منظر دموعهما الكبيرة وبكائهما بكـــاء الاطفال ، كان يثير الاشمئزاز اكثر مما كان يثير الاشفاق ، ولاننا كنا مع ذلك قد ارتبكنا امام بكاء النساء ، لولا ان خرج يهودا مشيرا الى الباب امامهما ، ويـده الاخـــرى تستحثهما على الخروج كما لو كان يكش سرب دجاج ، ولسانه يلهج بسرعة : « يا لله ، يا لله ، يا لله » ٠ فخرجت الاثنتان وهما تجففان دمعهما بطرفي منديليهما الابيضيـن الكبيرين ، تنتحبان بصمت واذعان ٠

وفي الباحة التي تليها مباشرة ، وجدنا عجوزا كان يجلس على حجر بجانب البيت ، وكأنه ينتظر قدومنا ، فنهض يستقبلنا ، وانهال علينا يثقل كاهلنا بكامل الحفاوة تأهيلا وترحيبا ، بل وهم بتقبيل يد عامل اللاسلكي (الذي جعله جهازه الغريب اكثر الجميـــع احتراما) ، والذي سارع وسحب يده اليه غاضبا : « اغرب عن وجهي ، انت الاخر ! » ٠ وسرعان ما راح ذلك الرجل ، ذو العمامة البيضاء والحزام الاصفر ، يحاضر امامنا وفقا للاصول ، كيف انه لا يوجد في القرية حتى ولا شاب واحد ، وكيف ان الجميع هنا هـم عجائز ونساء واطفال فقط ، وكيف انه توسل الى اولئك الذين قروا في الصبـــاح ان لا يفروا ، لان اليهود لا يؤذون احدا ، وانهم ليسوا كالانجليز « يلعن ابوهم » ، والخ والخ ٠ التصق بكل من ظنه يصغي اليه او قد يصغي لحديثه ، الى ان دفعه احدنا في ذروة حديثه قائلا له باختصار ان ينصرف الى هناك ويصمت ٠

ولم نكد نصل الى مستديرة صغيرة في اسفل القرية ، حتى كان سبعة من ابناء القرية يسيرون امامنا ، وبينهم اعرج كان يقفز على عكازه ٠ كانوا يسيرون من دون ان يلتفت احد منهم الى رفيقه ، لم يتفوهوا حتى ولا بكلمة واحدة ، ولم ينظر احد منهم الى الاخر ٠ وهكذا ، ودونما قصد ، تحولنا الى مسيرة صامتة وكئيبة ، كما لو كانت مظاهرة صغيرة في